"نهاية التاريخ" وردود الفعل

جوزف سماحه

نشر فوكوياما مقالته: «نهاية التاريخ» في مجلة «المصلحة القومية» الأميركية في العام صيف ١٩٨٩. وكاتب المقال (أصبح كتاباً قبل أشهر في ثلاث عشرة لغة)، أميركي من أصل ياباني. درس الفلسفة في بلاده قبل أن يمضي سنة في فرنسا، عاد بعدها إلى الولايات المتحدة لينهي أطروحة دكتوراه حول «الخطر السوفياتي».

عمل في مؤسسة «راند» للأبحاث، القريبة من وزارة الدفاع قبل أن ينتقل إلى الخارجية نائباً لرئيس قسم التخطيط فيها (دنيس روس الغني عن التعريف!). عندما نشر المقال كان فوكوياما يعمل في الوزارة، مما زاد في أهمية كلامه، ولكنه عاد فانتقل، بعده، إلى «راند» حيث يعمل منتظراً، كما يقول عرضاً للعمل في إحدى الجامعات.

عندما وضع فوكوياما مقاله (ثلاثين صفحة) تعمّد أن يجعل العنوان في صيغة سؤال «نهاية التاريخ»؟ لكن الذين ردوا عليه تجاهلوا جميعاً علامة الاستفهام، مما دفع به إلى الرد في مقال جديد قبل ان ينصرف إلى تأليف كتابه وإصداره؛ خلواً من علامة الاستفهام هذه، لم يغير فوكوياما آراءه بين ١٩٨٩ و١٩٩٢ ولكنه، كما يبدو عند مقارنة الكتاب بالمقال، أصبح أكثر تشاؤماً.

ماذا يقول؟

يستعرض فوكوياما تطورات العقد الأخير ونهاية «الحرب الباردة»، وانتشار السلم في مناطق جديدة في العالم، ويبحث عن تفسير جامع لذلك. يعتبر أن ما نشهده من أحداث يتجاوز مجرد هزيمة معسكر في وجه آخر، إنه يعني، في رأيه، وصول البشرية إلى نقطة الختام في تطورها الإيديولوجي وبروز الديموقراطية الليبرالية بصفتها الشكل النهائي للحكم البشري، يستعير، هنا تعابير هيغل وماركس ليتحدث عن «نهاية التاريخ».

بدأ القرن العشرون بتفاؤل كبير مصدره انتصار الليبرالية على الحكم المطلق. ولكن سرعان ما برز التحديان الشيوعي والنازي... وهزما. ومع اندحارهما تعود الثقة بالنفس ويختتم القرن بما افتتح به من تفاؤل. لم تنته الإيديولوجيا ولم يحصل التقارب بين الرأسمالية والشيوعية. انتصرت الليبرالية الاقتصادية والسياسية انتصاراً لا رجعة عنه.

لا يلغي هذا الانتصار إمكانية حصول تطورات وأحداث جديدة درامية... قد تقع حرب نووية بين الهند وباكستان، قد يعود الشيوعيون إلى الحكم في موسكو. هذه التفاصيل لا تغير في ثبات الفكرة القائلة بأن «نموذجنا» هو الأرقى، إذ كيف يمكن لحرب نووية بين الهند وباكستان، مثلاً المسّ بالمفاهيم التي سادت للحرية والمساواة؟

جرى تدمير الفاشية التي كانت تشكل تحدياً شاملاً. وأعقب ذلك الانتصار على الشيوعية التي مثلت مشروعاً بديلاً، وأحرز الانتصار بإسقاطها حيث هي، وبتحول المساواة في أميركا إلى نموذج المجتمع اللاطبقي الذي دعا إليه ماركس. يستدرك فوكوياما هنا ليقول، مخالفاً آراءه السابقة حول «الخطر السوفياتي» إن الشيوعية لم تكن جذابة إطلاقاً في العالم المتقدم. لذلك توسعت في مناطق أخرى، لكنّ الليبرالية نافستها في هذه المناطق أيضاً وانتصرت. وتحولت اليابان إلى النموذج الغربي واعتمدته مع ثقافة الاستهلاك اللصيقة به، وكذلك فعلت البلدان الآسيوية الأخرى. تبقى الصين، لكنها، وهي أبكر وأقدم الحضارات الآسيوية، أصيبت بالعدوى الديموقراطية بحيث بات الحكم الحالي فيها عاجزاً

عن تصدير نموذجه، معتمداً اقتصاد السوق بالتدريج، مضطراً، عاجلاً أم آجلاً، إلى الخضوع للمطلب الديموقراطي. يذكر فوكوياما، غير مرة، أن الصين هي أكثر الأمثلة تأكيداً لوجهة نظره منتقلاً بعد ذلك ليطرح على قرائه السؤال التالي: «هل من منافس إيديولوجي لليبرالية»؟ يتعرض للنزعات القومية والأصولية (هذا ما سنعود إليه لاحقاً) ليقلل من أهميتها أولاً وليعتبر أن لا تناقض جوهرياً بينها وبين الليبرالية.

يجيب فوكوياما عن السؤال الذي طرحه بالقول إن الليبرالية انتصرت في الواقع منذ بداية القرن الماضي. يعود هنا إلى هيغل الذي شاهد انتصار نابوليون في معركة يينا (١٨٠٦) على الجيش البروسي فاعتبر أن نموذج الثورة الفرنسية قد ساد العالم. يجب وضع كل ما جرى بعد ذلك بين هلالين، بدا في فترة، أن هذه النظرية خاطئة لكن الأحداث عادت فأكدت «صحة تحليلاتنا».

جرى ما جرى بين الظفر النهائي وبين التأكد منه (أي على مدى قرنين) لأن الإنسان محكوم بدافعين أساسيين: الرغبة في الثراء والرغبة في الاعتراف والاحترام. الرغبة في الثراء يعززها تطور الفيزياء وبالتالي الصناعة التي تحول الطبيعة وتزيد الإنتاج، وعلى هذا الأساس كان يمكن لتطور المجتمعات أن يكون متماثلاً. لكن الشيوعية ضلت الطريق وفشلت فلم يبق من بديل إلا الرأسمالية، والسوق والملكية الخاصة. ولكن هذه كلها يمكنها أن تستمر وتنمو من دون ديموقراطية. هنا يتدخل العامل الثاني: الرغبة في الاعتراف المتبادل والاحترام. جدلية السيد والعبد. النضال من أجل المساواة والحقوق. هذا يقود إلى الديموقراطية التي يكفي عطفها على الليبرالية الاقتصادية لنصبح أمام النموذج المنتصر والذي انتهى التاريخ عنده؛ لأن لا أمل بتحديه من قبل منظومة أخرى شاملة.

انتهت التناقضات الجوهرية في المجتمع الحديث، فالوفرة التي تؤمنها الاقتصادات الليبرالية وثقافة الاستهلاك الناجمة عن الفيض تساعدان على حماية الليبرالية في الحقل السياسي. إقتصاد السوق الحرة هو المدخل الوحيد للوفرة

وبالتالي لديمومة هذا النموذج. صحيح أن التفاوت الاجتماعي موجود، ولكن طبيعته تغيرت. لم يعد مرتبطاً بآليات الاقتصاد بل، بالوضع الثقافي والاجتماعي لجماعات معيَّنة في الغرب والعالم الثالث.

يدل هذا التفاوت على أن النموذج المنتصر لم يذهب إلى نهاية منطقة بعد، ولكن هذا لا يدل في شيء على إمكانية وجود بديل. ينظر فوكوياما حوله إلى العالم الواقعي فلا يرى الشيطان متمثِّلاً في حركة سياسية مثل التي سبق لها تهديد العالم الحر. وإذا كان الأمر كذلك فلماذا وضع فوكوياما عنواناً ثانياً لكتابه: الرجل الأخير؟ كانت فكرة «الرجل الأخير» النيتشوية موجودة في المقال، لكنها عرفت توسيعاً مطولاً في الكتاب؛ وهو الأمر الذي يفسر غياب علامة الاستفهام.

ثمة مجتمعات دخلت مرحلة «ما بعد التاريخ». وثمة مجتمعات لا تزال في «التاريخ». المجتمعات الأولى سوف تعاني الضجر، وضياع الشجاعة والمثالية والخيال، وسيتحول الاندفاع لديها من السياسة والفلسفة إلى المشاكل التقنية والبيئية والاستهلاك. سيدخل البشر في طور تصبح المهمة الوحيدة «صيانة متحف التاريخ الإنساني» لن يصون الأحياء الأموات. الأحياء يصونون أنفسهم في رتابة لامتناهية، قد يعكرها نشوء نزعات لدى بعضهم إلى التفوق والسيطرة وكسر هذه الحال «المساواتية» المطلقة والباردة. يمكن القول عند ذلك، إن التاريخ يتململ ولكن لا شيء يسمح، في الأفق المنظور، بالحسم، لذا فإن إطلاق التوقعات يكفي وحده.

السجال

يصعب جداً حصر الردود التي نشرت على أطروحات فوكوياما عندما نشرها في مقال، والتي بدأت تتوالى مع صدور الكتاب، وإذا كنا سنميز بين النقاش الذي دار في الولايات المتحدة وذلك الذي شهدته فرنسا، فلذلك علاقة بخصوصية البيئة الثقافية والسياسية الفرنسية حتى داخل أوروبا أو في مجالها الثقافي/السياسي.

ليس سراً أن المجلة ناشرة المقال، «المصلحة القومية» هي مجلة يمينية محافظة شديدة التأييد لسياسات رونالد ريغان وجورج بوش، كما أن الكاتب نفسه لا يخفي انتماءه إلى الحزب الجمهوري مفضلاً إياه على الحزب الديموقراطي، لقسوة الأول ورخاوة الثاني في التعاطي مع الاتحاد السوفياتي والمعسكر الاشتراكي. وقد شاءت المصادفات أن يصدر المقال بعد انتقال فوكوياما إلى موقعه الرسمي خلافاً لرأي زوجته، كما يقول، التي توقعت «نجاح» المقال وراهنت على الاستفادة المادية من الشهرة اللاحقة بدل الاكتفاء بمرتب موظف، ولو كبير، في الخارجية.

الموقع الرسمي والسياسي والفكري ترك آثاره على ردود الفعل. أقطاب اليمين الأميركي تناوبوا جميعاً على امتداح المقال. ووجد فيه جورج ويل شارك كروتكامر وصحبهما ضالتهم المنشودة من أجل الرد على الكتاب الذي كان يخيم على الأجواء الأميركية في ذلك الوقت: «صعود القوى العظمى وانحطاطها» للمؤرخ بول كينيدي. يتحدث الأخير عن دخول الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة مرحلة «تراجع تاريخي». كان واضحاً أن الأحداث تؤكد صحة هذا الكلام في جانب، وتثير الخشية من أن يكون صحيحاً، أيضاً، في الجانب الآخر، الأميركي، لذلك جرى التمسك بمقال فوكوياما، كما يجري التمسك بكتابه الآن، من أجل السجال ضد «القلق الزاحف» في الولايات المتحدة وإقناع النفس والآخرين بأن الحديث عن «الانحطاط» لا يستقيم في بلد يعيش «الانتصار النهائي» على خصومه. كلهم «رائع» و«ممتاز» و«دقيق»، هي بعض التعابير المستخدمة في وصف الرأي الذي يطوره فوكوياما، والذي تعتبره مجلة «المصلحة القومية» رأياً يصعب رفضه، فتزيد عليها «المجلة الأميركية للقضايا الخارجية»، في مقدمة عن عرض للكتاب، أن فوكوياما تحدى فلاسفة العالم بنظرته المثيرة إلى الديموقراطية الغربية بصفتها ذروة التطور الإيديولوجي للجنس البشري. زاد هذا الاعجاب من حدة النقاش وفتحت مجلة «المصلحة القومية» صفحاتها لمنتقدين من نوع جون غراي الذي رأى أن الفكرة استفزازية بالدرجة الأولى، لكنها غير مقنعة، إذ إنه من العسير فهم ثقة فوكوياما بأن الدور التاريخي للديموقراطية الليبرالية هو إيصال العالم إلى خاتمة سعيدة، خاصة بعد أن فشلت

هذه الفلسفة في اثبات أنها الشكل الوحيد للحكم الذي يحظى بموافقة العقل والاخلاق. أما لويس لافام فأخذ على فوكوياما سطحيته. قال في مقال له في «هاربرز ماغازين» إن المصادفة جعلت نهاية الحرب الباردة تصادف نهاية القرن ونهاية الألف الثاني فسقط فوكوياما في إغراء الحديث عن نهاية التاريخ. أضاف، إن مشكلة فوكوياما هي اعتباره التاريخ تاريخ أفكار، فإذا تقدمت الليبرالية على غيرها واكتفى مواطنو الدول المتقدمة بحماية الاستهلاك والدستور جاز الكلام عن «نقطة الختام» وبما أن فوكوياما يتوقع استمرار العنف من شعوب العالم الثالث، فإن لافام يأخذ عليه أنه يدعو ضمناً إلى قمعها طالما أن خط التطور تصاعدي، وطالما أن القمع يصبح إخراجاً لهذه الشعوب من «التاريخ» لإدخالها في ما بعده، أو بالأحرى للتعجيل في إيصالها إلى ما لا بد منه. وجاء التعليق الأقسى من كارين بينار في مجلة «بيزنس ويك» التي كان يفترض فيها الارتياح إلى الانتصار النهائي للنموذج الأميركي الذي تدافع عنه: «يصعب قبول حجج فوكوياما؛ قالت بينار؛ مضيفةً أن العالم الجديد يطرح أسئلة جديدة يصعب الجواب عنها، وإنه من الصعب حالياً أن نفهم ماذا يجري. ستروب تالبوت في «تايم ماغازين» سخر من الكاتب والمقال والكتاب، مشبهاً فوكوياما بـ «ترميناتور ٢» الذي كان لا بد أن يعود بقوة أكثر (الكتاب) بعد اطلالته الأولى (المقال).

«كم هو لطيف» قال هنري الن، هازئاً في «الواشنطن بوست» في حين تعمَّد روبرت رايش تقديم رد مفصَّل في «وول ستريت جورنال»، إذ اقترح خمسة احتمالات لنهاية التاريخ: أ ـ سيطرة البيروقراطية الكونية، ب ـ الفوضى والتشرذم، ج ـ صعود اليابان والمانيا، د ـ انتصار الديموقراطية الليبرالية، هـ ـ خليط من هذه العناصر كلها. وأعرب عن ميله إلى الاحتمال الأخير منتقداً فوكوياما لحسمه في ترجيح الرابع. ولم يمنعه هذا السجال من «ممازحة» فوكوياما بالقول إن الرد على الكتاب وقع عليه «لأنه الرصيد المتبقي في جامعة كامبردج من دون تعليق مكتوب على المقال». رفع فوكوياما «الاغتباط بالنفس إلى مستوى الفلسفة» على حد قول «يو. اس. نيوز اند وورلد ربيورت». لكنه،

أيضاً، رفع مستوى النقاش السياسي في الولايات المتحدة وغيرها.

لن تهدأ قريباً العاصفة التي أثارها الكتاب. لقد انتقلت بسرعة إلى اليابان وأوروبا. هي مستمرة في هذه البلدان التي تلوِّنها بألوانها المحليَّة. لقد استقبلت فرنسا المقال ثم الكتاب باهتمام كبير. هناك من وافق، وهناك من تحفَّظ، وهناك أيضاً من اعترض. بين المعترضين ثمة من يقول إنه لا يجوز الحديث عن «نهاية التاريخ» وانتصار الديموقراطية الليبرالية في ظل الصعود الإسلامي الذي يهدِّد كل شيء. هل فات هذا «التهديد» فوكوياما؟ ماذا قال عنه؟ وكيف يساجل الفرنسيون، وغيرهم، معه؟ يمكن لفرنسيس فوكوياما أن يكون سعيداً. تحدث عن «نهاية التاريخ» عام ١٩٨٩. لم يكن الاتحاد السوفياتي قد أكمل انهياره وما كانت جمهورياته المستقلة قد ظهرت، وانحازت مثلها مثل دول أوروبا الشرقية والوسطى، إلى النموذج الديموقراطي الليبرالي. لم يكن في وسع الرئيس الأميركي أن يقول، كما يفعل اليوم: «انتهت الحرب الباردة بانتصارنا فيها». لم يكن قد وجد بعد هذا المصطلح الفارغ من أي مضمون: «النظام العالمي الجديد».

بين مقال ١٩٨٩ وكتاب ١٩٩٢، «نهاية التاريخ والرجل الأخير»، حصلت تطورات قد لا تكون في أهمية الانهيار السوفياتي، ولكنها ذات دلالة: حرب الخليج، تصاعد «الإسلام الحزبي» «الأزمة اليوغوسلافية، تجدد المسألة القومية في أوروبا، بروز اليمين المتطرف، استمرار التراجع في الوزن الاقتصادي الأميركي مع انعكاساته على الوضع الداخلي، إلخ..

هذه تطورات تؤكد في جانب منها، أو بالأحرى، يمكن لها أن تؤكد، نظرية فوكوياما، ولكنها، في جوانب أخرى، تدفع إلى المزيد من التشكيك فيها.

الواضح من مقارنة الكتاب بالمقال أن الباحث تنبَّه إلى هذه التطورات وحاول إدخالها في المحاججة التي يقيمها دفاعاً عن وجهة نظره. لذلك أدّى صدور الكتب إلى إثارة نقاش جديد لا يكتفي بتكرار ما سبق. هذا ما عرضنا

له في تقديم «الاستقبال الأميركي» لـ «نهاية التاريخ»، وما نشهده، في شكل أوضح، في «الاستقبال الفرنسي».

في حالتي المقال والكتاب كان «الاستقبال» حافلاً. تعاقب المثقفون الفرنسيون على الرد. صدرت مئات (نعم مئات) المقالات. مجلات متخصصة أفردت أعداداً خاصة، وصلت في بعض الأحيان إلى أربعة على التوالي، لإعطاء السجال مداه وللتركيز سواء على الجانب الفلسفي في هذه الأطروحات، أو التاريخي، أو السياسي. وفي هذا المجال الأخير جرى استخدام التطورات بين ١٩٨٩ و١٩٩٢ ضد أطروحة فوكوياما وضد محاولته استدراك ما جرى عبر التوسيع الذي اعتمده في كتابه.

فوكوياما وخطر الأصولية

يؤكد فوكوياما أن «التاريخ انتهى» لأن الديموقراطية الغربية سجلت انتصارها الحاسم، أو باتت في موقع يستحيل معه على أي نظام فكري آخر أن يتحداها. ولكن الأمانة تقتضي القول بأنه توقف عند بعض التحديات الممكنة (استمرار النظام الشيوعي في الصين) ليفنّدها ويستخدمها في تدعيم رأيه. توقف أيضاً عند النزعات القومية والأصولية الإسلامية ليؤكد في آن، «خطرها» على النموذج المنتصر، وليوضح ما يعتبره «حدود هذا الخطر». ماذا يقول فوكوياما حول هذين «الخطرين» وفي شكل خاص، حول الأصولية الإسلامية؟

يعتبر أنه «لم يبق أي خصم إيديولوجي جدي للديموقراطية الليبرالية» تبنّتها الشعوب بعد أن رفضتها في السابق معتبرة أنها دون الملكية والارستقراطية والثيوقراطية والفاشية والشيوعية والتوتاليتارية والإيديولوجيات الأخرى التي ظهرت على هذه الأرض الملاذ والحل ويبدو اليوم، وخارج العالم الإسلامي، أن إجماعاً ينشأ في اتجاه قبول ادعاء الديموقراطية الليبرالية بأنها الشكل الأكثر عقلانية للحكم... يبدأ إذاً، باستثناء العالم الإسلامي. يكمل، في مجال آخر، «أن الإسلام انفرد، في المجتمع المعاصر، بتقديم نموذج عن دولة ثيوقراطية كبديل عن كل من الليبرالية والشيوعية». ولكن الثانية انهارت، لذلك يرد فوكوياما

على السؤال: «هل يمثل الإسلام الراديكالي الخطر الرئيسي على الديموقراطية؟». يرد فيقول: «ماذا يعني الخطر الرئيسي؟ يمكن للبلدان الإسلامية أن تشكل خطراً على الغربيين وامداداتهم بالبترول. هذه حال العراق. يمكنها أيضاً القيام بأعمال إرهابية، مثل ليبيا أو إيران. يمكن لهذه البلدان، أيضاً، أن تمتلك القنبلة. تطرح الهجرة من البلدان الإسلامية مشاكل اجتماعية خطيرة في فرنسا وبلدان أوروبية أخرى. ولكن الإسلام، خارج محيطه الثقافي، لا يمكنه، من دون إيرادات النفط، تشكيل أساس يتطور عليه نظام اقتصادي عصري. التهديد الإسلامي للحضارة ولقيم الغرب أقل من ذلك الذي مثلته الشيوعية. يعود فيوضح «إن الأصولية الإسلامية قوة نافذة جداً في العالم الإسلامي ولكنها لا تنتشر خارجه. عندما نرى فتيات المانيا بالتشادور وشبانها يصلون متوجهين نحو الكعبة، عندها نشعر بخطر فعلي على نمط حياتنا»!

الإسلام، في رأي فوكوياما، خطر كبير، لكنه خطر محدود لأنه غير قابل للتصدير إلى خارج «حوضه».

النقاش الفرنسي

يلفت النظر أن هذه القضية كانت حاضرة في النقاش المندلع في فرنسا حول «نهاية التاريخ» أكثر، بما لا يقاس، من حضورها في مثيله في الولايات المتحدة الأميركية. سنعود إلى ذلك بعد استعراض سريع للانقسامات الفرنسية حول أطروحات فوكوياما العامة. ومثل العادة، حاول الفرنسيون في نقاشهم مع فوكوياما تأكيد «فرادتهم». توافقوا على أن الجانب الفكري في الكتاب «ضعيف» أو «قليل التعقيد» قبل أن ينصرفوا إلى اختلاف حوله لا يكرّر انقساماتهم الإيديولوجية التقليدية.

التقى في الدفاع عن الكتاب «قطبان» أولهما يميني وثانيهما يساري، جورج سوفير قال في «لوفيغارو» إن «فوكوياما على حق عندما يبرهن أن لا منافس جدياً كونياً للديموقراطية الليبرالية»؛ فوافقه على ذلك اليساري المعروف جان دانيال في «لونوفيل اوبسرفاتور»: «لقد انتهى التاريخ حقاً لأننا بتنا نعرف مآله». أضاف،

إن فوكوما لا يمكن أن يكون مخطئاً لأنه لا يفعل، سياسياً، غير «تكرار البديهيات».

على الجبهة الأخرى تعرض فوكوياما لنقد عنيف شارك فيه، هنا أيضاً، كتاب يتراوحون بين الجذرية والمحافظة. قال بعضهم إن هذه ليست المرة الأولى التي يتوقع فيها مفكر «نهاية التاريخ» ورفض البعض الآخر مجرد الفكرة. باسكال بروكنر وبرنار هنري ليفي اتّهما الكاتب بأنه يستعيد آلية تفكيره من «الشيوعية المهزومة» وبأنه قد يكون «الماركسي الأخير». تذكر الأول ماضيه اليساري ليقذف في وجه فوكوياما، أنه يوجه رسالة إلى فقراء العالم مؤدّاها «ابقوا خارجاً» وأنه أعدم «جانب الارتجال اليومي في صناعة التاريخ». أما الثاني فأعرب عن التخوف من صعود اليمين المتطرف، مشيراً إلى أن التاريخ ربما كان يبدأ من جديد، وأنه «يخبىء لنا مفاجآت تقوم بها قوى غريبة جداً تجري صناعتها حالياً». تحدث بيار شوند عن قدم هذه الفكرة المعبر عن الشعور بالحاجة «إلى عالم ما ورائي هادىء»، في حين أشار الفيلسوف اندريه كونت سبونفيل إلى «أن التاريخ ينتهي مع نهاية الإنسانية»، أما لوك فيري فلم يوافق على الادعاء بأن الديموقراطية هزمت أعداءها ولا على تبشير من يعيشون المأساة، مهتمين بتاريخهم العياني، بأن لا مجال بعد اليوم لأي إصلاح جذري. شارك لويس باولس، المعلق اليميني (جداً) المعروف في النقد قائلاً؛ إن فكرة فوكوياما تناقض جوهر «الديموقراطية الليبرالية التي هي إبداع عفوي مستمر للمجتمعات الإنسانية، لا يمكنها أن تعد بالراحة النهائية ولو مصحوبة بالضجر». شارك جان بيار شوفنمان وزير الدفاع الفرنسي السابق في السجال من موقعه اليساري، ليؤكد رأيه في فشل الثورة الشيوعية وإيمانه بأن «قوة الدفاع نحو العدالة والديموقراطية موجودة، وستقود شعوباً أخرى إلى مسرح التاريخ»... هذا التاريخ الذي يساوي الكلام عن نهايته «الحلم القديم للأثرياء والمسيطرين». قدمت جريدة ليبراسيون» عرضاً للكتاب ختمته بالقول: «إذا أردنا أن نكون خبثاء فإننا نلاحظ أن فوكوياما هو هيغل ناقص الديالكتيك وزائد ملاحظات وزارة الخارجية الأميركية». وتميز الناقد الأدبي لجريدة «لوموند» بيرتران بوارو

ديلبيش بشن الهجوم الأكثر عنفاً على فوكوياما وكتابه، إنه «تنجيم» و«نشيد انتصار النموذج الأميركي، خال من أي تواضع ومن أي حسبان للحدود والخطأ». الكتاب في رأي ديلبيش دعوة للفقراء لكي «يعودوا إلى بيوتهم» ودعوة للغرب كي يرقص على «جثة ادعاءات العدو المختفي». يرمي التأكيد على «نهاية التاريخ» إلى «تنفيذ مناورة تخويف تستعمر بشكل بشع أفكارنا ومخيلاتنا»، إنها «عملية تشريط» تستهدف، كما يقول. وينقل ديلبيش عن الدوس هاكسلي في إحدى رواياته: «جعل الناس يحبون المآل الأخير الذي لن يستطيعوا تجنبه».

تنوعت الردود ولكنها التقت، في معظمها، عند قاسم مشترك التقى عنده الذين أشرنا إليهم وغيرهم (ماكس غالو اليساري، المؤرخ الشهير إيمانويل لاروا لاتوري، إلخ...) أي أن يساريين ويمينيين توافقوا على القول؛ إن أطروحات فوكوياما حول «نهاية التاريخ» شديدة التفاؤل لأنها تتحدث عن انتصار النموذج الليبرالي الديموقراطي في وقت يشهد العالم صعود الأصولية الإسلامية التي تهدده (فضلاً عن النزعات القومية المتطرفة).

الإسلام هو الخطر

أُثير موضوع الأصولية الإسلامية في النقاش الفرنسي مع فوكوياما بطريقة لا علاقة لها بالموضوع نفسه في الولايات المتحدة. وتأكد في هذا المجال أمران: الأول وجود حساسيات متباينة لدى الفرنسيين والانكلو ـ ساكسون حيال «الأصولية» (حذر الأوائل وقلقهم، براغماتية الآخرين التي لا تلغي القلق). والثاني ذهاب بعض الفرنسيين إلى حد اعتبار المشكلة في الإسلام نفسه لا في الأصولية المنتسبة إليه.

كتابان يعبران عن هذا الإتجاه:

«عن الإسلام عامة والعالم المعاصر خاصة» هو عنوان كتاب جان كلود بارو (أحد المسؤولين السابقين في دائرة الهجرة). الفكرة العامة للكتاب، هي، أن لا إمكانية للتعايش بين العالم المعاصر الذي أصبح ديموقراطياً وليبرالياً وبين الإسلام في شكله الحالي. ويعلن الكاتب عن ميوله منذ الصحفة الأولى بإبداء الدهشة

من إقدام مثقفين على «الموضة» على الحديث عن «نهاية التاريخ» في وقت تنبعث إيديولوجيا عمرها ثلاثة عشر قرناً لتشكل، بقوتها وانغلاقها، تهديداً مباشراً لهذا التاريخه.

عنوان الكتاب الثاني «الانتعاش الديموقراطي» لجان فرنسوا روفيل. الكتاب الثاني هو الأهم لأسباب عديدة، منها أن الكاتب هو أحد بطاركة اليمين الثقافي الفرنسي، وعرّاب الفلاسفة الجدد الذين سبق لهم أن انحازوا، بضوضاء كبيرة، إلى الصف الليبرالي. لا بد من وقفة إذن أمام ما يقوله روفيل.

ينتقد الكاتب أطروحات فوكوياما من موقع فائق، الليبرالية لكنه ينتقل ليستعرض على امتداد خمسمئة صفحة حجم الانتصارات التي يحققها النموذج الغربي في أوروبا والعالم. الديموقراطية تتقدم في كل مكان من أميركا اللاتينية إلى آسيا إلى افريقيا إلى أوروبا الوسطى والشرقية... ولكنها تقف عند «أسوار العالمين العربي والإسلامي» لماذا؟ «هل الثقافة الإسلامية عاجزة عن التكيُّف مع الديموقراطية؟ أم أنها الثقافة العربية» يأتي الجواب سريعاً: الإثنتان معاً.

يتضح من الصفحات الكثيرة التي يخصِّصها الكاتب لهذا الموضوع، أن «قضية سلمان رشدي» تعود لتخيِّم على بحث العلاقة بين الإسلام والديموقراطية، فهذه القضية «تكشف عجز الإسلام عن الاندراج في الحضارة الديموقراطية»، وتؤكد «إن الإسلام ليس جزءاً من العالم الحديث». يحذِّر الكاتب الغرب من أن يكرر مع العالم الإسلامي الأخطاء التي ارتكبها مع الشيوعية (التردد، اللين، المسايرة، إلخ...) لأن «الإسلام لا يستطيع تقديم فهم للعالم المعاصر، ولأنه، وهذا أهم، يهدده من الداخل، ففي السابق، كانت أوروبا تعتبر الإمبراطورية العثمانية خطراً. لكنه خطر كان يقف عند أبوابنا ولا ينتشر في مجتمعاتنا ولا ينغرس في قلب مدننا وفي داخل دولنا... أما حالياً، فإن الهجرة الكثيفة وسهولة الحصول على الجنسية تسلحان التصلب الإسلامي وتوفران له قلاعاً متكاثرة بيننا».

يرفض روفيل أي كلام عن «تسامح الإسلام، ويرد على أصحاب هذا الرأي بكلام قاطع «لا يمكن أن نصف بالتسامح ديانة يتساوى فيها الاختلاف

مع الإعدام» ثم يستطرد (وقضية سلمان رشدي في ذهنه تختصر كل تعقيدات العالم الإسلامي) محاولاً بث الخوف حوله: «إن الإسلام هو مصدر تسعة أعشار الإرهاب العالمي الرسمي. هل يتوجب علينا أن نحرس مكاتبنا ومسارحنا ومتاحفنا من هذا التعصب الذي يريد فرض الرقابة على ثقافتنا مع مفعول رجعي». يبحث الكاتب، عبثاً، عن مسلمين معتدلين فلا يجد إلا الطاهر بن جلون وسمير الخليل وفؤاد زكريا. ولكنه لا يعود إلى كتبهم المنشورة بالفرنسية بل إلى مقالات لهم أو مقابلات معهم، ينتهي منها إلى أنهم عديمو التأثير على مواطنيهم الذين يعتبرون «الدعوة إلى القتل فكرة ثابتة لا يعرفون التلفُّظ بغيرها».

وفي عودة إلى ما يبدو أنه سجال مع أطروحة فوكوياما حول «نهاية التاريخ» إلى ما يقوله عن الأصولية الإسلامية التي لا تهدد النموذج الديموقراطي الليبرالي ببديل «واقعي»، يؤكد روفيل على أمرين: «الأول أن الإسلام ديانة، أو حقيقة سياسية ـ دينية، توتاليتارية في العمق حتى الآن». الثاني: «أن الأنظمة الفكرية التي تتضمن، في مبدئها الأصلي نفسه، مشروع الفتح العالمي، هي النازية والشيوعية والإسلام». الخطر ماثل إذ لم ينته التاريخ لأن انتصار الديموقراطية الليبرالية ليس نهائياً. صحيح أنها هزمت النازية ثم الشيوعية ولكن الإسلام موجود لتهديدها، لذلك «لا يمكن المساومة مع مشروع هدفه تدميرنا».

يتحدث روفيل عن المسلم العادي بصفته Homo Islamicus مستعيداً ما كان يقال عن «السوفياتي العادي» أنه شخص لا يحول ولا يزول. يحمل مشروع التهديد في ذاته ويعجز عن الخلاص منه. والاستثناء (مثل تركيا، يؤكد القاعدة.

يندرج هذا التصور في سياق النيو ـ ليبرالية وطريقتها في التعاطي مع قضايا العالم الثالث والتنمية والتخلُّف والتبادل غير المتكافىء. كل طرحٍ لهذه القضايا هو «كره للأجنبي»، وكل احتجاج بأن شروط انتاج وعي آخر غير متوافرة ولكنها ليست مستحيلة هو احتجاج خاطىء. أسباب التخلف، في رأي روفيل

«إنسانية ونفسية قبل كل شيء» والديموقراطية هي شرط التنمية وليس العكس. ويقود ذلك إلى الاستنتاج بأنه لا يمكن للعالم الإسلامي الخروج مما هو عليه لأن ما هو عليه ناجم بالضبط، من... إسلاميته.

وظيفة القنبلة

ثمة تفاوت مؤكد في رفع «الخطر الإسلامي» دليلاً على أن التاريخ لم ينته. لكن هذا التفاوت الثقافي (بين الأميركيين والفرنسيين مثلاً) لا يخفي ان التباين يتضاءل عند الانتقال إلى المستوى السياسي ـ الاستراتيجي.

لقد أدى إنهيار الشيوعية إلى انتفاء (أو تراجع) القدرة (أو الرغبة) في الاستفادة من «التناقض» بينها وبين الإسلام: لا دور ملموساً له في ما يسمى «النظام العالمي الجديد». متى أضفنا إلى ذلك تحولات تشهدها الحركات الإسلامية نفسها (ليس هنا مجال التوسع فيها) أصبحنا أمام معطى جديد». من بنود هذا الجديد عملية البحث المضني عن عدو جديد. هذا موضوع يشغل بال الدوائر المعنية بالدفاع والسياسة الخارجية والمخابرات والتخطيط للتصنيع الحربي ورسم التحالفات و... تعميم «الثقافة». عندما يغير حلف شمال الأطلسي عقيدته الدفاعية فإنه يعيّن الجنوب كمصدر للخطر. وعندما يعلن الرئيس الروسي بوريس يلتسين إن صواريخه لم تعد موجهة إلى المدن الأميركية فإنه يعيّن لها وجهة أخرى. وعندما «يتحرر» مسلمو آسيا الوسطى تصبح المهمة الملحة دفعهم نحو خيارات معينة. ويصعد إلى السطح موضوعان كانا مطروحين في السابق لكنهما يأخذان، حالياً، بعداً آخر: الإرهاب والقنبلة النووية الإسلامية. يتحول الإرهاب المدان إلى ذريعة لمواجهة تقصد ما هو أبعد منه، بكثير، أما القنبلة الإسلامية فتصبح حديث الساعة حين لا يطردها الحديث عن «أسلحة الدمار الشامل».

لهذه «القنبلة» وظيفة محددة في سياق النقاش الذي تطرحه «نهاية التاريخ» و«انتصار النموذج الديموقراطي الليبرالي». إنها السلاح الناقص من أجل أن يصبح «الإسلام» ليس خطراً محدوداً كما يقول فوكوياما، بل مشروعاً توسعياً يُقلق «العالم المتحضِّر» بأكمله.